

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويقال: سورة «الغرف». قال وهب بن منبه: من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف^(١). وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة: إحداهما: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، والأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية. وقال آخرون: إلا سبع آيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه على ما يأتي^(٢). روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل^(٣). وهي خمس وسبعون آية. وقيل: اثنتان وسبعون آية.

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل؛ قاله الفراء. وأجاز الكسائي والفراء أيضا: «تنزيل» بالنصب على أنه مفعول به. قال الكسائي: أي: اتبعوا واقروا ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾. وقال الفراء: هو على الإغراء مثل قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا. والكتاب القرآن. سمي بذلك لأنه مكتوب. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق؛ أي: بالصدق وليس بباطل وهزل. ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾. فيه مسألتان:

الأولى: ﴿مُخْلِصًا﴾ نصب على الحال، أي: موحدا لا تشرك به شيئا ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة وهو مفعول به. ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: الذي لا يشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء

(١) النحاس (٦/ ١٤٧) في معاني القرآن، وسميت كذلك لقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ﴾.

(٢) سيأتي ذلك - إن شاء الله تعالى، وانظر: زاد المسير (٧/ ١٦٠) لابن الجوزي.

(٣) صحيح: الترمذي (٣٤٠٥) في الدعوات، وصححه الألباني هناك، و(٤٨٧٤) في صحيح الجامع.

الناس. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شوزك فيه» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» (١) و«النساء» (٢) و«الكهف» (٣) مستوفى.

الثانية: قال ابن العربي (٤): هذه الآية دليل على وجوب النية في كل عمل، وأعظمه الوضوء الذي هو شطر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام والخير محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا الله، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده (٥). قال الكلبي: جواب هذا الكلام في الأحقاف: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ (٦) [الأحقاف: ٢٨] والزلفى القربة؛ أي: ليقربونا إليه تقريباً، فوضع ﴿زُلْفَى﴾ في موضع المصدر. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (٧) وفي حرف أبي «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله زلفى» (٨) ذكره النحاس. قال: والحكاية في هذا بينة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلا بما يستحق. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد؛ أي: للدين الذي ارتضاه وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وفي هذا رد على القدرية وغيرهم على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو أراد أن يسمي أحداً من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن الولد ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكْوَرُ أَلَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى أَلَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجاً وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطن أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة

(١) ضعيف: وقد سبق عند الآية (٢٦٢).

(٢) عند الآية (١٤٦).

(٣) عند الآية (١١٠).

(٤) القاضي ابن العربي المالكي (٤/ ١٦٥٦) في أحكام القرآن.

(٥) صحيح: الطبري (٢٣/ ١٩٥) في تفسيره، وزاد السيوطي (٥/ ٦٠٢) في الدر عزوه لابن المنذر، وعبد بن

حميد، والبغوي (٧/ ١٠٨) في تفسيره.

قلت: وهذه هي شبهة أهل الأضرحة والقبور بين من أهل القصعة اليوم.

(٦) فتح القدير (٦/ ٢٦٨) للشوكاني.

(٧، ٨) قراءات شاذة كلها انظرها في: معاني القرآن (٦/ ١٥٠).

والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به. ونبه بهذا على أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل. ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال الضحاك: أي يلقي هذا على هذا. وهذا على هذا (١). وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كور المتاع، أي: ألقى بعضه على بعض؛ ومنه كور العمامة. وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية. قال: ما نقص من الليل دخل في النهار، وما نقص من النهار دخل في الليل (٢). وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣] وقيل: تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهذا قول قتادة (٣). وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: بالطلوع والغروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة حين تنفطر السماء وتنتشر الكواكب. وقيل: الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها. قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منزلهما لا يجاوزان (٤). وقد تقدم بيان هذا في سورة «يس» (٥) ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿أَلَا تَنْبِيهَ أَي تَنْبَهُوا فإني أنا الْعَزِيزُ الْغَالِبُ﴾ الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني ليحصل التناسل، وقد مضى هذا في «الأعراف» (٦) وغيرها. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل. وهذا يسمى التدرج؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جبير: خلق (٧). وقيل: إن الله تعالى خلق هذه الأنعام في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد. وقيل: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق إنزالاً؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلق لكم كذا بأمره النازل. قال قتادة: من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد زوج. وقد تقدم هذا. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسدي: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحماً (٨). ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم (٩). وقيل: في ظهر الأب ثم خلقاً في بطن

(١) فتح القدير (٦/ ٢٦٩) للشوكاني غير مسند، والنكت والعيون (٤/ ٥) للماوردي.

(٢) ما روى عن ابن عباس (يحمل الليل على النهار) كما عند الطبري (٢٣/ ١٩٧) في تفسيره منقطعاً من طريق علي بن أبي طلحة، وابن أبي حاتم (١٢/ ١٤٥) في تفسيره، والاثر المذكور عن الحسن والكلبي وانظر: البغوي (٧/ ١٠٧، ١٠٨).

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٣/ ١٩٧) في تفسيره.

(٤، ٥) سبقا عند الآية (٤٠) من سورة «يس».

(٦) عند الآية (١).

(٧) انظر: النكت والعيون (٤/ ٥) للماوردي بغير سند.

(٨) صحيح إليه: الطبري (٢٣/ ١٩٩) في تفسيره.

(٩) صحيح: انظر السابق.

الأم ثم خلقا بعد الوضع ذكره الماوردي^(١). ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك^(٢). وقال ابن جبير: ظلمة المشيمة وظلمة الرحم، وظلمة الليل^(٣). والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن المرأة، وظلمة الرحم. وهذا مذهب أبي عبيدة. أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره. وقرأ حمزة «إمهااتكم» بكسر الهمزة والميم^(٤). والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم^(٥). الباقون بضم الهمزة وفتح الميم.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ شرط وجوابه ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يجب ذلك منهم. وقال ابن عباس والسدي: معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي المؤمنون^(٦). وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة. وقيل: لا يرضى الكفر وإن أَرَادَهُ؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر ويأراده كفر لا يرضاه ولا يحبه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا. وهذا مذهب أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشكر لكم؛ لأن ﴿تَشْكُرُوا﴾ يدل عليه. وقد مضى القول في الشكر في «البقرة»^(٧) وغيرها. ويرضى بمعنى يثيب ويثني، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإما ثأؤه فهو صفة ذات. و«يَرْضَهُ» بالإسكان^(٨) في الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم. وأشبع الضممة ابن ذكوان وابن كثير وابن محيصة والكسائي وورش عن نافع^(٩). واختلس الباقون^(١٠) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قد تقدم في غير موضعه.

(١) النكت والعيون (٤ / ٥) للماوردي .

(٢) ذكرها الطبري (٢٣ / ١٩٩) في تفسيره ، عن مجاهد وعكرمة والضحاك ، والسند إلى الضحاك منقطع ، وفي سند عكرمة (سماك) وهو مضطرب وإسنادهم ضعيف ، وانظر: الدر المنثور (٥ / ٦٠٤) للسيوطي وزاد عزوه لابن أبي حاتم ، وسعيد بن منصور .

وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ١٤٧) .

(٣) انظر: الماوردي (٤ / ٧) في تفسيره .

(٤ ، ٥) قراءتان متواترتان : كما في تقريب النشر (ص ١٠٤) .

(٦) منقطع : بين علي بن أبي طلحة ، وابن عباس - رضي الله عنهما - وصحيح إلى السدي : الطبري (٢٣ / ١٠) .

(٧) عند الآية (٥٢) .

(٨ - ١٠) قراءات متواترة : تقريب النشر (ص ١٠٦) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ﴿١﴾ أَمِنْ هُوَ قَدْنِتُ
ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا
إِلَيْهِ﴾ أي: راجعا إليه محبنا مطيعا له مستغيثا به في إزالة تلك الشدة عنه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ﴾ أي:
أعطاه وملكه. يقال: خولك الله الشيء، أي: ملكك إياه، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:
هَذَاكَ إِنْ يُسْتَخَوَّلُوا الْعَمَالَ يُخَوَّلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطَوُا وَإِنْ يُسِيرُوا يُغْلَوُا
وخول الرجل: حشمه الواحد خائل. قال أبو النجم:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخُلْ كَوْمِ الذَّرَى مِنْ خَوَلِ الْمُخَوَّلِ

قوله تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربه الذي كان يدعو به من قبل في كشف
الضر عنه. ف ﴿مَا﴾ على هذا الوجه لله عز وجل وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى «من» كقوله: ﴿وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز
وجل. أي: ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي
أوثانا وأصناما. وقال السدي: يعني أندادا من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ﴾ أي: ليقتردي به الجهال. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قل لهذا الإنسان ﴿تَمَتَّعْ﴾ وهو أمر تهديد
فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ بين تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره. وقرأ
الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمِنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب
والأعمش وحمزة ﴿أَمِنْ هُوَ﴾ بالتخفيف^(١) على معنى النداء؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء:
الألف بمنزلة يا، تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل. وحكي ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال
أوس بن حجر:

أَبْنِي لُبَيْتِي لَسْتُمْ بِيَدٍ إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدٌ

وقال آخر هو ذو الرمة:

أَدَارًا يَحْزَوِي هَجَّتْ لِلْعَيْنِ عِبْرَةٌ فَمَاءُ الْهَوَى يَرْفُضُ أَوْ يَتَرَقُّ

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يا من هو قانت إنك من أصحاب
الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلان لا يصلي ولا يصوم، فيا من يصلي ويصوم أبشر؛ فحذف لدلالة
الكلام عليه. وقيل: إن الألف في ﴿أَمِنْ﴾ ألف استفهام أي: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أفضل؟ أم من
جعل لله أندادا؟ والتقدير الذي هو قانت خير. ومن شدد ﴿أَمِنْ﴾ فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٨).

خير ﴿أَمْ هُوَ قَائِتٌ﴾ فالجملة التي عادلته أم محذوفة، والأصل «أم من» فأدغمت في الميم. النحاس: وأم بمعنى بل، ومن بمعنى الذي؛ والتقدير: أم الذي هو قانت أفضل من ذكر. وفي «قَائِتٌ» أربعة أوجه: أحدها أنه المطيع؛ قاله ابن مسعود^(١). الثاني أنه الجاشع في صلته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلته؛ قاله يحيى بن سلام. الرابع: أنه الداعي لربه. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عز وجل»^(٢)، وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت»^(٣)، وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام. وروي عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام، وقراءة القرآن^(٤). وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغيض البصر^(٥). وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعيشوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين. قال النحاس: أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلها داخله في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر قم فصل فقممت أصلي وكان علي ثوب خلق، فدعاني فقال لي: رأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزين قال: فالله أحق أن تزين له^(٦). واختلف في تعيين القانت ها هنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله ﷺ^(٧). وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما^(٨). وقال ابن عمر: هو عثمان رضي الله عنه^(٩). وقال مقاتل: إنه عمار بن ياسر^(١٠). الكلبي: صهيب وأبو ذر وابن مسعود^(١١). وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال. «أَنَاءَ اللَّيْلِ» قال الحسن: ساعاته: أوله وأوسطه وآخره^(١٢). وعن ابن عباس: «أَنَاءَ اللَّيْلِ» جوف الليل^(١٣). قال ابن عباس: من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليره الله في ظلمة الليل ساجدا وقائما، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه^(١٤). وقيل: ما بين المغرب والعشاء. وقول

(١) (٢) سبقا، والحديث ضعيف مرفوع، وأثر ابن مسعود صحيح موقوف عند ابن كثير (٧/ ٦٤) في تفسيره.

(٣) صحيح: مسلم (٧٥٦/ ١٦٤، ١٦٥) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: الطبري (٢٣/ ٢٠٥) في تفسيره.

(٥) سبق.

(٦) حسن موقوف: عبد الرزاق (١/ ٣٥٨) في المصنف.

(٧) وهذا بعيد، والله أعلم.

(٨) منقطع: بين الضحاك، وابن عباس الطبري (٢٣/ ٢٠٥) في تفسيره.

(٩) ضعيف: أبو نعيم (١/ ٥٦) في حلية الأولياء، وفي سننه يحيى البكاء، وفيه لين، وانظر: الكاشف (٢/

٣٧٦).

(١٠) مرسل وضعيف: الواحدي (ص ٣١٠) في أسباب النزول.

(١١) ضعيف: لحال الكلبي الكذاب، ورواه البغوي (٧/ ١١١) غير مسند.

(١٢) ورواه الطبري (٢٣/ ٢٠٥) في تفسيره، عن قتادة، وهو غير مسند عند الماوردي (٤/ ٧).

(١٣) غير مسند عند الماوردي (٤/ ٧)، وابن كثير (٧/ ٦٤) في تفسيره.

(١٤) لم أجده هكذا.

الحسن عام^(١). ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي عذاب الآخرة^(٢). ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: نعيم الجنة. وروي عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال: هذا متمن^(٣). ولا يقف على قوله: ﴿رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ من خفف ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصل إلا أن يقدر في الكلام حذف وهو أيسر، على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج: أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والمعاصي. وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: قل يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو، وقد تقدم. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة^(٤). ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة. قال القشيري: والأول أصح؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا.

قلت: وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناء الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي^(٥). وقد مضى القول في هذا مستوفى في «النساء»^(٦). وقيل: المراد أرض الجنة؛ رغبتهم في سعتها وسعة نعيمها؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والجنة قد تسمى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَرْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهر فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا. الماوردي: يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان.

قلت: فتكون الآية دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية، إلى الأرض الراضية، كما قال سفيان

(١) قلت: هو الأصح، والله أعلم.

(٢) ورواه موقوفاً على ابن عباس بسند صحيح: الطبري (٢٣/ ٢٠٦) في تفسيره.

(٣) قد سبق، وانظر تفسير الحسن البصري (٢/ ٢٦٠).

(٤) ذكره البغوي (٧/ ١١١) في تفسيره بلفظ: قيل ولم يذكر سنداً.

(٥) وهذا قول عطاء: وفيه شريك سبي الحفظ، كما عند ابن كثير (٧/ ٦٥) في تفسيره.

(٦) عند الآية (١٠٠).

الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزاً بدرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يزداد على الثواب؛ لأنه لو أعطي بقدر ما عمل لكان بحساب. وقيل ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا. و﴿الصَّابِرُونَ﴾ هنا الصائمون؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن الله عز وجل: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(١). قال أهل العلم: كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا الصوم فإنه يحثى حثوا ويغرف غرفاً؛ وحكي عن علي رضي الله عنه. وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبر على فجاج الدنيا وأحزانها. ولا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه، فلا مقدار لأجرهم. وقال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان، حدثني أنس أن رسول الله ﷺ قال: «تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»^(٢). وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أد الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالتنوع تكن من أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صبا» ثم تلا النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣). ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصي، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا؛ قاله النحاس. وقد مضى في «البقرة» مستوفى.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۗ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۗ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۗ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ ۗ أَلَمْ يَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ قَوْمِهِمْ ظُلْمًا مِنَ الثَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمًا ۗ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۗ يَلْعَبَادِ

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) عزاه السيوطي (٥/ ٦٠٥، ٦٠٦) في الدر المنثور لابن مردويه، عن أنس - رضي الله عنه، وقد رواه الترمذي (٢٤٠٢)، عن جابر - رضي الله عنه، وحسنه الألباني (٦٠٦/ ٢٢) في الصحيحة من طريق الترمذي. ورواه الطبراني بسند فيه مجاعة بن الزبير، عن ابن عباس، ومجاعة ضعيف كما في المجموع (٢/ ٣٠٥) للهيتمي. ورواه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٣) في مصنفه مقطوعاً على مسروق، و(٧/ ٢٣٢) موقوفاً على ابن مسعود وفيه رجل لم يسم.

(٣) موضوع: إسناده مظلم، رواه الطبراني (٣/ ٩٢) في الكبير وفي إسناده: الأصبغ بن نباتة وهو: وإه، وسعد ابن طريف: ضعيف جداً.

وهو عن الحسن بن علي لا الحسين كما في طبعة دار الحديث (١٥/ ٢٣١) وطبعة التوفيقية (١٥/ ١٩٢)، والتصحيح من الكتب الأصلية المنقول عنها الحديث، والدر المنثور (٥/ ٦٦) للسيوطي.

﴿فَاتَّقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ تقدم أول السورة. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه؛ وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إليه ﷺ. واللام في قوله: ﴿لَأَنْ أَكُونَ﴾ صلة زائدة؛ قاله الجرجاني وغيره. وقيل: لام أجل. وفي الكلام حذف أي أمرت بالعبادة ﴿لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذاب يوم القيامة وقال حين دعاه قومه إلى دين آبائه؛ قاله أكثر أهل التفسير. وقال أبو حمزة الشمالي وابن المنيب: هذه الآية منسوخة (١) بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي ﷺ. ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبَدُ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ نصب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف (٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله (٣). وفي رواية عن ابن عباس: فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سُمي ما تحتهم ظللا؛ لأنها تظل من تحتهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]. ﴿ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونَ﴾ أي: يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عام في المؤمن والكافر. وقيل: خاص بالكفار.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ قال الاخفش: الطاغوت جمع ويَجوز أن تكون واحدة مؤنثة. وقد تقدم. أي: تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان (٥). وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان (٦). وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بدلا من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت.

(١، ٣) لا نسخ هنا، والله أعلم

(٢) كان الالتيق أن يقال: لفظ الجلالة .

(٤) إسناده صورته صحيحة .

(٥، ٦) صحيح إليهم: كما عند الطبري (٢٣/ ٢٠٩) في تفسيره، ولم يذكر الأثر هنا عن الضحاك. وإنما ذكره

الماوردي (٤/ ١٠) غير مسند، والشوكاني (٦/ ٢٧٧) في فتح القدير .

﴿وَأَنبَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: رجعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العقبى. روي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضي الله عنهم؛ سألوا أبا بكر رضي الله عنه فأخبرهم بإيمانه فأمنوا^(١). وقيل: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ^(٢). وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به^(٣). وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عزا وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو. وقيل: إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام (لا إله إلا الله). وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم، واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم^(٤). ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين الذين انتفعوا بعقولهم.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان^(٥). وكرر الاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ تأكيدا لطول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدم. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أفأنت تنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجميء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير. وقال الفراء: المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إن في الكلام حذفًا والتقدير: أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مستأنف. وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١] لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقي بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حق عليه قول العذاب.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾

(١) ذكره الواحدي (ص ٣٦٠) في أسباب النزول، عن عطاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما .

وذكره البغوي (٧/ ١١٣) في تفسيره ولم يذكر الطريق إلى عطاء .

(٢) مرسل : هذا قول زيد بن أسلم ولكن في الطريق إليه ابنه وهو ضعيف. الطبري (٢٣/ ٢١٠) في تفسيره ، وابن كثير (٧/ ٦٦٦) في تفسيره .

(٣) ذكره الشوكاني (٦/ ٢٧٧) في فتح القدير ، ولم يعزه لابن عباس .

(٤) هكذا بلا إسناد (٧/ ١١٣) عند البغوي في تفسيره .

(٥) مرسل : وقد سبق .

كما يتغير النبات الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .
 ﴿أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ
 فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ شرح فتح ووسع. قال ابن عباس: وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه (١). وقال السدي: وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه (٢)؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على هدى من ربه. ﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قال المبرد: يقال قسا القلب إذا صلب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلب قاس، أي: صلب لا يرق ولا يلين. والمراد بمن شرح الله صدره ها هنا فيما ذكر المفسرون علي وحزمة رضي الله عنهما. وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضا والكلبي: رسول الله ﷺ. والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه. وروى مرة عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسول الله قوله تعالى: ﴿أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح» قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله» (٣)، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلا قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له استعدادا، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» (٤) فذكر ﷺ خصالا ثلاثة، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان، فإن الإجابة إنما هي أعمال البر؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضع في تنزيله ثم قال بعقب ذلك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] فالجنة جزاء الأعمال؛ فإذا انكش العبد في أعمال البر فهو إجابته إلى دار الخلود، وإذا خمد حرصه عن الدنيا، ولها عن طلبها، وأقبل على ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا في كل أمر، واقفا متادبا مثبتا حذرا يتورع عما يريه إلى ما لا يريه، فقد استعد للموت. فهذه علامتهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذي ولج القلب. وقوله: ﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده؛ ومعنى ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره.

(١) كذا غير مسند عند الماوردي (٤/ ١٣) في تفسيره .

(٢) صحيح إليه : الطبري (٢٣/ ٣١٣) في تفسيره .

(٣) ضعيف : عزاه الحافظ (ص ١٤٣) في الكافي الشافي للثعلبي والحاكم من حديث ابن مسعود ، وقال : « فيه أبو

فروة الرهاوي وفيه كلام » .

(٤) ضعيف : الترمذي الحكيم (١/ ١٢٥) في نوادر الأصول .

وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ بمعنى عن، والمعنى: قست عن قبول ذكر الله. وهذا اختيار الطبري (١). وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى اطلبوا الخواجج من السمحاء فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي (٢). وقال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم (٣).

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

هَادٍ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿تَبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن. قال سعد بن أبي وقاص: قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصت علينا فنزل ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] الآية (٤). وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له: حدثنا فنزلت (٥). والحديث ما يحدث به المحدث. وسمي القرآن حديثاً؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحدث به أصحابه وقومه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَدَرَنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] قال القشيري: وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فيدل على أن كلامه محدث وهو وهم؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إن الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعالى. ﴿كِتَابًا﴾ نصب على البدل من ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ويحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف (٦). وقيل:

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٢١٢).

(٢) موضوع: الهيمى (٨/ ١٩٥). في المجمع، وعزاه للطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن مروان السدي الصغير متروك.

(٣) ذكره الهروي (٧/ ١١٥) في تفسيره.

(٤) صحيح: الحاكم (٢/ ٣٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، والطبري (١٢/ ٩٠) في تفسيره.

(٥) رواه الواحدي (ص ٢٢٦) في أسباب النزول، عن عون بن عبد الله لا عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٣/ ٢١٢) في تفسيره.

يشبه كتب الله المنزل على أنبيائه؛ لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز. ﴿مَثَانِي﴾ تنثى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل. ﴿تَقَشَّرُ﴾ بتضرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني الإسلام.

الثانية: وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحاب النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن - كما نعتهم الله - تدمع أعينهم، وتتشعر جلودهم. قيل لها: فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (١). وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي: مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد ﷺ (٢). وقال عمر بن عبدالعزيز: ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجله، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق (٣). وقال أبو عمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشق رجل قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشق قميصه، فإنني لا أحب المبذرين؛ يشرح لي عن قلبه (٤).

الثالثة: وقال زيد بن أسلم: قرأ أبي بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه فرفقا فقال النبي ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة» (٥). وعن العباس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله؛ تحمات عنه خطاياه كما يتحمات عن الشجرة البالية ورقها» (٦). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار» (٧). وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل في قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجرد إلا قشعريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب (٨). وعن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عياني، فذلك حين يستجاب لي. يقال: اقشعر جلد الرجل اقشعرارا فهو مقشعر.

(١) كذا عند ابن أبي حاتم (١٢/ ١٤٩) في تفسيره، وسنده حسن عند ابن المبارك (١/ ٣٥٩) في الزهد.

(٢) ضعيف: فيه سعيد بن عبد الرحمن الجمحي لم يسمع ابن عمر، ثم هو صدوق له أوهام كما في التقريب (١/

٢٣٨) وأفرط ابن جبان في تضعيفه، وانظر: ابن عطية (١٤/ ٧٧) في المحرر الوجيز.

(٣) انظر السابق.

(٤) خبر من الإسرائيليات.

(٥) ضعيف: وضعفه الألباني (٩٧٩) في ضعيف الجامع.

(٦) ضعيف: الهيثمي (١٠/ ٣١٠) في المجمع، وقال: «رواه البزار وفيه: أم كلثوم بنت العباس لم أعرفها وبقية

رجالها ثقات».

(٧) فيه شهر بن حوشب: مختلف فيه وقد سبق في سورة البقرة.

(٨) انظر: الدر المنثور (٥/ ٣٢٦).

والجمع قشاعر فتحذف الميم، لأنها زائدة؛ يقال أخذته قشعريرة. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أَكَابِدُ لَيْلَ التَّمَا م وَالْقَلْبُ مِنْ خَشْيَةِ مُقَشَّعٍ

وقيل: إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، اقشعرت الجلود منه إعظاما له، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدع قريب من الاقشعرا، والخشوع قريب من قوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب: رفته وطمانيته وسكونه. ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ أي: القرآن هدى الله. وقيل: أي: الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من خذله فلا مرشد له. وهو يرد على القدرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كله مستوفى في غير موضع والحمد لله. ووقف ابن كثير وابن محيصة على قوله: ﴿هادٍ﴾ في الموضوعين بالياء، الباقرين بغير ياء.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّخَذُوا الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿فَأَذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يرمى به مكتوبا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه (١). وقال مجاهد: يجر على وجهه في النار (٢). وقال مقاتل: هو أن الكافر يرمى به في النار مغلولة يدها إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه، فحرها ووهجها على وجهه؛ لا يطبق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال (٣). والخبر محذوف. قال الأخفش: أي ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أفضل أم من سعد، مثل: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. ﴿وقيل للظالمين﴾ أي: وتقول الخزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء كسبكم من المعاصي. ومثله ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كذب قبلهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشا، وأكثر أموالا وأولادا، وأوسع عيشا، فأهلكتهم كشمود وعاد. ﴿فَاتَّخَذُوا الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَأَذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تقدم معناه. وقال المبرد: يقال لكل ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخزى من المكروه والخزاية من الاستحياء ﴿وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) كذا في تفسير البغوي (٧/ ١١٧) دون عزو.

(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢٣/ ٢١٤) في تفسيره، وزاد السيوطي (٥/ ٦١١) في الدر عزوه إلى عبد بن حميد والقرطبي.

(٣) انظر: تفسير البغوي (٧/ ١١٧).

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٠١﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقيل: أي ما ذكرناه من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون. ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش: لأن قوله جل وعز ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ معرفة. وقال علي بن سليمان: ﴿عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال و﴿قُرْءَانَا﴾ توطئة للحال كما تقول مررت بزید رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوب على الحال. وقال الزجاج: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال و﴿قُرْءَانَا﴾ توكيد. ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ النحاس: أحسن ما قيل فيه قول الضحاك، قال: غير مختلف (١). وهو قول ابن عباس (٢)، ذكره الثعلبي. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق (٣)، ذكره المهدوي، وقاله السدي (٤) فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير متضاد. وقال مجاهد: غير ذي لبس (٥). وقال بكر بن عبد الله المزني: غير ذي لحن (٦). وقيل: غير ذي شك. قاله السدي (٧) فيما ذكره الماوردي. قال:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والكذب.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب ﴿رَجُلًا﴾ لأنه ترجمة للمثل وتفسير له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال الفراء: أي مختلفون. وقال المبرد: أي متعاسرون من شكس يشكس شكساً بوزن قفل فهو شكس مثل عسر يعسر عسراً فهو عسر، يقال: رجل شكس وشرس وضرس وضيس. ويقال: رجل ضيس وضيس أي: شرس عسر شكس؛ قاله الجوهري. الزمخشري: والتشاكس والتشاكس: الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان، أي: ماكسني وشاكسني في حقي. قال الجوهري: رجل شكس بالتسكين، أي: صعب الخلق. قال الراجز:

شكس عبوس غنيس عذور

(١) هذا عند النحاس (٤/ ١٠) في إعراب القرآن، وذكره الشوكاني (٦/ ٨٤) في فتح القدير بلا سند.

(٢) انظر السابق.

(٣) ضعيف: منقطع بين علي بن أبي طلحة، وابن عباس، ورواه الأجرى (١٧٢) في الشريعة، وزاد السيوطي (٥/ ٦١١) في الدر عزوه لابن مردويه والبيهقي، وانظر: زاد المسير (٥/ ٢٦٤) لابن الجوزي - رحمه الله.

(٤) انظر: البغوي (٧/ ١١٧) في تفسيره، والشوكاني (٦/ ٢٨٤) في فتح القدير.

(٥) صحيح إليه؛ الطبري (٢٣/ ٢١٥) في تفسيره.

(٦، ٧) فتح القدير (٦/ ٢٨٤) للشوكاني.

وقوم شكسٌ مثال رجلٌ صدقٌ وقومٌ صدقٌ. وقد شكسَ بالكسر شكاسة. وحكى الفراء: رجل شكسٌ. وهو القياس، وهذا مثل من عبد آلهة كثيرة. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي: خالصا لسيد واحد، وهو مثل من يعبد الله وحده. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جره واستخدمه؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا يئازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعباً أو على هدى مستقيم. وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجحدري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «ورجلا سلما»^(١) واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضد المشترك، والسلام ضد الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضد الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك. ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم، أي: لا عاهة به. والقراءتان حستان قرأ بهما الأئمة. واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة: ﴿سَلَمًا﴾ قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سَلَمًا» بكسر السين وسكون اللام. وسَلَمًا وسَلَمًا مصدران؛ والتقدير: ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و﴿مَثَلًا﴾ صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفاتهما وحالهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون الحق فيتبعونه.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكَ تَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ قرأ ابن محيصة وابن أبي عبيدة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنك مائت وإنهم مائتون» وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير. النحاس: ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و«مائت» في المستقبل كثير في كلام العرب؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لما راض من هذا الطعام. وقال الحسن والفراء والكسائي: الميت بالتشديد من لم يموت وسموت، والميت بالتخفيف: من فارقه الروح؛ فلذلك لم تخفف هنا^(٢). قال قتادة: نعت إلى النبي ﷺ نفسه، ونعت إليكم أنفسكم^(٣). وقال ثابت البناني: نعى رجل إلى صلة بن أشيم أخا له فوافقه يأكل، فقال: ادن فكل فقد نعى إلي أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر؟ قال: إن الله تعالى نعاه إلي فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٤). وهو خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسة أوجه: أحدها: أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة الثاني: أن يذكره حثا على العمل. الثالث: أن يذكره توطئة للموت. الرابع: لثلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك. الخامس: ليعلمه أن

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٨).

(٢) عزاه السيوطي (٥/ ٦١٣) في الدر لعبد بن حميد.

(٣) لم أجده هكذا.

(٤) سبق تخريجه.

الله تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة .
 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس^(١) وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد^(٢). وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد^(٣). وقال ابن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف؛ فعرفت أنها فينا نزلت^(٤). وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا^(٥). وقال إبراهيم النخعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟^(٦)، فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا بيننا. وقيل: تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردها في حسنات من وجبت له. وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» خرجه مسلم^(٧). وقد مضى المعنى مجودا في «آل عمران»^(٨) وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(٩)، وفي الحديث المسند: «أول ما تقع الخصومات في الدنيا»^(١٠) وقد ذكرنا هذا الباب كله في «التذكرة» مستوفى.

- (١) ضعيف : للاتقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس كما عند الطبري (٢٣ / ٢١٨) في تفسيره .
- (٢) ضعيف : وقد سبق وعزاه السيوطي (٥ / ٦١٤) لابن منده عن ابن عباس ، وكذا قال ابن كثير (٧ / ٧٢) وعزاه لابن منده في الروح .
- (٣) صحيح : الترمذي (٣٢٣٦) في التفسير وصححه ووافقه الألباني ، ورواه الحاكم (٢ / ٢٧٢) في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي .
- (٤) صحيح : النسائي (١١٤٤٧) في الكبرى ، وأبو عمرو الداني (١ / ٢١٦) في السنن الواردة في الفتن .
- (٥) عزاه السيوطي (٥ / ٦١٤) في الدر لسعيد بن منصور .
- (٦) صحيح وهو مرسل : الطبري (٢٣ / ٢١٨) في تفسيره .
- (٧) صحيح : مسلم (٢٥٨١) في البر والصلة ، والترمذي (٢٤١٨) في صفة القيامة .
- (٨) عند الآية (١٦٩) .
- (٩) صحيح : وقد سبق .
- (١٠) رواه ابن المبارك (١ / ١١٥) بسند حسن عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه موقوفاً وفيه عاصم بن أبي بهدلة وهو صدوق له أوهام .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ^١ تَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ^٢﴾
 وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ^٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ
 الْمُحْسِنِينَ^٥ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا
 ﴿وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يعني القرآن ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ استفهام تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مقام
 للجاحدين، وهو مشتق من ثوى بالمكان: إذا أقام به يثوي ثواء وثويا مثل مضى مضاء ومضيا، ولو
 كان من أثوى لكان مُثْوًى. وهذا يدل على أن ثوى هي اللغة الفصيحة. وحكى أبو عبيد: أثوى،
 وأنشد قول الأعشى:

أثوى وقصر لَيْلَةً لِيُرَوِّدَا وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعي لا يعرف إلا ثوى، ويروى البيت: أثوى على الاستفهام. وأثويت غيري، يتعدى ولا
 يتعدى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾
 واختلف في الذي جاء بالصدق وصدق به؛ فقال علي رضي الله عنه ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ النبي ﷺ
 ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أبو بكر رضي الله عنه^(١). وقال مجاهد: النبي عليه السلام وعلي رضي الله عنه^(٢).
 السدي: الذي جاء بالصدق جبريل والذي صدق به محمد ﷺ^(٣). وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة:
 ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ النبي ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ المؤمنون^(٤). واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ
 الْمُتَّقُونَ﴾ كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقال النخعي ومجاهد^(٥) ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾
 المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا قد لتبعنا ما فيه؛ فيكون
 ﴿الَّذِي﴾ على هذا بمعنى جمع كما تكون من بمعنى جمع. وقيل: بل حذفت منه النون لطول الاسم،
 وتأول الشعبي على أنه واحد. وقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ محمد ﷺ فيكون على هذا خبره جماعة؛
 كما يقال لمن يعظم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا. وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد
 الله عز وجل؛ قاله ابن عباس^(٦) وغيره، واختاره الطبري. وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جاؤوا
 بالصدق وصدقوا به» وهي قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ
 وَصَدَّقَ بِهِ﴾ مخففا على معنى: وصدق بمجيئه به، أي: صدق في طاعة الله عز وجل، وقد مضى في

(١) ضعيف جداً بل باطل: الطبري (٢٤ / ٣) في تفسيره، وفي إسناده عمر بن إبراهيم بن خالد: متهم بالكذب،
 المعنى في الضعفاء (٢ / ٤٦٢).

(٢ - ٤) أسانيدھا صحاح إلى أصحابها: الطبري (٤ / ٣، ٤) في تفسيره.

(٥، ٦) زاد المسير (٥ / ٢٦٦) لابن الجوزي، والطبري (٤ / ٢٤) في تفسيره، وأثر ابن عباس عند الطبري منقطع
 بينه وبين ابن أبي طلحة.

«البقرة»^(١) الكلام في ﴿الَّذِي﴾ وأنه يكون واحدا ويكون جمعا. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرام عندي؛ أي: ينالك مني ذلك. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الشاء في الدنيا والثواب في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صدقوا ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾. ﴿أَسْوأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام. ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: يشيهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ حذفت الياء من «كاف» لسكونها وسكون التثوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التثوين، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي. وقراءة العامة: ﴿عَبْدَهُ﴾ بالتوحيد يعني محمدا ﷺ يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عباده»^(٢) وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عبيدة قراءة الجماعة لقوله عقبيه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس؛ كقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية. والكفاية شر الأصنام، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الانعام: ٨١]. وقال الجرجاني: إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان، فقالوا: أتسب آلهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبك بسوء. وقال قتادة: مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس. فقال له سادنها: أحذر كرها يا خالد، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ؛ لأنه الذي وجه خالدًا^(٣). ويدخل في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ تقدم. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادى رسله.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قُلْ يَنْقُورِمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

(١) عند الآية (١٧).

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٨).

(٣) سبق تخريجه. وهذا مرسل، ورواه الطبري (٦ / ٢٤) في تفسيره.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ
أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكِيْلٍ ﴿١١﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ بين
أنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بألتهم
التي هي مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض؟ ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إن
أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ ﴿بَشْدَةً أَوْ بِلَاءٍ﴾ هل هن كاشفات ضره ﴿يَعْنِي هَذِهِ الْأَصْنَامُ﴾ أو أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴿نِعْمَةً أَوْ رِخَاءً﴾
هل هن مُسَكِّاتُ رَحْمَتِهِ ﴿قَالَ مَقَاتِلٌ﴾ فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئا قدره
الله ولكنها تشفع. فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون لا أي لا
تكشف ولا تمسك ف ﴿قُلْ﴾ أنت ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي عليه توكلت أي اعتمدت ﴿وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون. وقد تقدم الكلام في التوكل (١). وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا
عاصما «كاشفات ضره» بغير تنوين. وقرأ أبو عمرو وشيبة وهي المعروفة من قراءة الحسن وعاصم
«هل هن كاشفات ضره». «مسكات رحمته» بالتنوين (٢) على الأصل وهو اختيار أبي عبيد وأبي
حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود. قال الشاعر:

الضاربون عميرا عن بيوتهم بالليل يوم عمير ظالم عادي

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين، وحذف التنوين على التحقيق، فإذا حذفت التنوين لم يبق
بين الاسمين حاجز فخفضت الثاني بالإضافة. وحذف التنوين كثير في كلام العرب موجود حسن؛
قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسَلُونَ نَائِقَةً﴾ [القم: ٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك
﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وأنشد سيبويه:

هل أنت باعث دینارٍ لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخرق

وقال النابغة:

أحکم کحکم فتاة الحی إذ نظرت إلى حمّام شرّاعٍ وأرد الثمد

معناه: وارد الثمد، فحذف التنوين؛ مثل: ﴿كاشفات ضره﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على مكاتي، أي: على جهتي التي
تمكنت عندي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وقرأ أبو بكر بالجمع: «مكاناتكم» (٣). وقد مضى في «الأنعام».
﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: بهينه ويذله، أي: في الدنيا وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُقِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكِيْلٍ﴾ تقدم الكلام في هذه الآية مستوفي في غير موضع.

(١) عند الآية (١٢٢) في سورة آل عمران.

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٦٨).

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٨).

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبضها عند فناء آجالها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ اختلف فيه. فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى. وقال الفراء: المعنى ويقبض التي لم تمت في منامها عند انقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيقها نومها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت وفاتها نومها. وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها^(١). وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدها^(٢). قال علي رضي الله عنه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقى الشياطين، وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة^(٣). وقال ابن زيد: النوم وفاة والموت وفاة^(٤). وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تبعثون»^(٥). وقال عمر: النوم أخو الموت^(٦). وروي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها»^(٧) خرجه الدارقطني. وقال ابن عباس: «في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتميز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه»^(٨). وهذا قول ابن الأنباري والزجاج. قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحال شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

(١) انظر الأقوال كلها عند الطبري (٩ / ٢٤) في تفسيره عدا قول ابن عباس .

وأثر ابن عباس صحيح: الهيثمي (٧ / ١٠٠) في المجمع وعزاه للطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وانظر: العظمة (٣ / ٩٠٧) .

(٢) صحيح إليه : الطبري (٩ / ٢٤) في تفسيره .

(٣) ذكره الطبري (٩ / ٢٤) لكن دون عزو ، ولم أجده مسنداً إلا بنحوه عند ابن أبي حاتم (١٢ / ١٥٤) في تفسيره من طريق سليم بن عامر وصورة الإسناد صحيحة .

(٤) صحيح إليه : الطبري (٩ / ٢٤) .

(٥) لم أجده بهذا اللفظ ، وقد سبق بنحوه .

(٦ ، ٧) صحيح مرفوع : وصححه الألباني (٦٨٠٨) في صحيح الجامع ، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وعزاه للطبراني في الأوسط والبخاري ، ورجاله رجال الصحيح .

(٨) ذكره البغوي (٧ / ١٢٢) في تفسيره لعلي - رضي الله عنه .

فإذا يقبض الله الروح في حالين في حالة النوم، وحالة الموت، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يجسبه عن التصرف فكانه شيء مقبوض، وما قبضه في حال الموت فهو يمسه ولا يرسله إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ أي: يزيل الحابس عنه فيعود كما كان. فتوفي الأُنس في حال النوم بإزالة الحس وخلقت الغفلة والآفة في محل الإدراك. وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية. ﴿فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ بالألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ بأن يعيد إليها الإحساس.

الثانية: وقد اختلف الناس من هذه الآية في النفس والروح: هل هما شيء واحد أو شيان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيء واحد، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب. من ذلك حديث أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»^(١)، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره» قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه» خرجهما مسلم^(٢). وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء...»^(٣) وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجته ابن ماجه؛ وقد ذكرناه في التذكرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها...» وذكر الحديث^(٤). وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك^(٥). وقال رسول الله ﷺ مقابلا له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا، ولو شاء ردها إلينا في حين غير هذا»^(٦).

الثالثة: والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابه للأجسام المحسوسة، يجذب ويخرج وفي أكفانه يلف ويدرج، وبه إلى السماء يعرج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخيثة؛ كما في حديث أبي هريرة^(٧). وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله في كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] يعني النفس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفة الجسم. والله أعلم.

الرابعة: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدكم

(١) صحيح : مسلم (٩٢٠) في الجنائز .

(٢) صحيح : سبق عند مسلم في الجنائز .

(٣) صحيح : النسائي (١١٤٢) في الكبرى ، وابن ماجه (٤٢٦٢) في الزهد ، وصححه الألباني .

(٤) صحيح : مسلم (٢٨٧٢) في الجنة وصفة نعيمها .

(٥) صحيح : مسلم (٣٠٩ / ٦٨٠) في المساجد ومواضع الصلاة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٦) مرسل : مالك (١٤ / ١) في وقوت الصلاة .

(٧) صحيح : سبق تخريجه .

إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينبض بها فراشه، وليُسم الله، فإنه لا يعلم ما خلفه بعدد على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل: سبحانك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها^(١). وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل «فاغفر لها» «وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد علي روعي وأذن لي بذكره»^(٢). وخرج البخاري عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)^(٣).

قوله تعالى: ﴿فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل ﴿الْمَوْتُ﴾ نصبا؛ أي قضى الله عليها وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ فهو يقضي عليها. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمره والكسايني: «قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ» على ما لم يسم فاعله^(٤). النحاس: والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أين وأشبه بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على: ﴿وَيُرْسَلُ﴾ ولم يقرؤوا: «وَيُرْسَلُ». وفي الآية تشبيه على عظيم قدرته وانفراده بالالوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويحيي ويميت، لا يقدر على ذلك سواه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني في قبض الله نفس الميت والناثم، وإرساله نفس الناثم وحبه نفس الميت. وقال الأصمعي: سمعت معتمرا يقول: روح الإنسان مثل كبة الغزل^(٥)، فترسل الروح، فيمضي ثم تمضي ثم تطوى فتجيء فتدخل؛ فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء في حال النوم ومعظمها في البدن متصل بما يخرج منها اتصالا خفيا، فإذا استيقظ المرء جذب معظم روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدم في «سبحان»^(٦).

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقْعِلُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُمُ الْمَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي بل اتخذوا يعني الأصنام وفي الكلام ما يتضمن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكروا ولكنهم اتخذوا آلهتهم شفعاء. ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يملكون شيئا من الشفاعة

(١) متفق عليه: البخاري (٦٣٢٠) في الدعوات، ومسلم (٢٧١٤) في الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٤٠١) في الدعوات، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: البخاري (٦٣١٢) في الدعوات.

(٤) قراءة متواترة: تفريغ النشر (ص ١٦٨).

(٥) كبة الغزل: ما جمع منه اللسان «كيب».

(٦) عند الآية (٨٥)

﴿وَلَا يَقْلُونَ﴾ لأنها جمادات. وهذا استفهام إنكار. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا شافع إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الانبيا: ٢٨]. ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال. فإن قيل: ﴿جَمِيعًا﴾ إنما يكون لل اثنين فصاعدا والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدي عن الاثنين والجمع: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت. وهو قول ابن عباس ومجاهد^(١). وقال قتادة: نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت^(٢). وقال المؤرج: أنكرت. وأصل الاشمئزاز النفور والازورار. قال عمرو ابن كلثوم:

إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشُورَتَهُ زُبُونًا

وقال أبو زيد: اشماز الرجل: ذعر من الفزع وهو المدعور. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا. ﴿وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان حين ألقى الشيطان في أمانة النبي ﷺ عند قراءته سورة «النجم»: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهم ترتجى^(٣). قاله جماعة المفسرين. ﴿وَإِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البشر والسرور.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَرُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١١﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نصب لانه نداء مضاف وكذا ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي ﷺ يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل»: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهتدي لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم^(٤). ولما بلغ الربيع بن خثيم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وقال سعيد بن جبیر: إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا

(١) (٢) تفسير البيهقي (٧/ ١٢٣) غير مستند .

(٣) سبق أن هذه القصة موضوعة منحولة لا يجوز ذكرها .

(٤) صحيح: مسلم (٧٧٠) في صلاة المسافرين .

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كذبوا وأشركوا ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» (٢) و«الرعد» (٣). ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجل ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات (٤). وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة (٥). ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة ف ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار. وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم (٦). وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أحشى أن يبدو لي ما لم أكن أحسب (٧). ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوْتِيَتْهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ رَبِّ لِي هِيَ فَتَنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في حذيفة بن المغيرة (٨). ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوْتِيَتْهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عندي بوجوه المكاسب (٩)، وعنه أيضا «على علم» على خير عندي. وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بعلم علمني الله إياه. وقيل: المعنى أنه قال قد علمت أنني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها. قال الفراء: أنت ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو كان بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير بل أعطيته فتنة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار.

(١) لم أجده هكذا .

(٢) عند الآية (٩١) (٣) عند الآية (١٨) .

(٤) - (٦) فتح القدير (٦/ ٢٩٣) للشركاني .

(٧) عكرمة هذا حدث عنه مسلم ، لكن تركه البخاري إذا لم يكن عنده كتاب يحدث منه وهنا حدث اختلاط عنده ، والله أعلم . وقد وثقه أحمد وابن معين ، كما في (مَنْ تُكَلِّمُ فِيهِ) (١ / ١٣٧) ، وانظر : فتح القدير (٦ / ٢٩٣) للشوكاني .

(٨) ضعيف : أرسله مقاتل كما في زاد المسير (٥ / ٢٧٢) لابن الجوزي .

(٩) ذكره الطبري (٢٤ / ١٢) ، عن قتادة - رحمه الله - وهو غير مسند عند الشوكاني (٦ / ٢٩٤) في فتح القدير .

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنت على تأنيث الكلمة. ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال ﴿إِنَّمَا أَوْتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَاءٌ﴾ للجهد، أي: لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا. وقيل: أي فما الذي أغنى أموالهم؟ فـ ﴿مَاءٌ﴾ استفهام. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يسمى جزاء السيئة سيئة. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أي: بالجوع والسيوف. ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فالتين الله ولا سابقيه. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات ويتفجع بها. ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكررا واستدرجا، وتفكيره رفعة وإعظاما.

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَيُّوْا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَدْحَسَتْ قُلِّي عَلَىٰ مَا فَطَرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿١٣﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٤﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإن شئت حذفت الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس: ومن أجل ما روي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، أتعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وعياش ابن أبي ربيعة بن عتبة، فقلنا: الموعد أضاعة^(١) بني غفار، وقلنا: من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه. فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام، وإذا به قد فتن فافتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل في كتابه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ^(٢). وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه: إن ما

(١) الأضاعة: الغدير، وهو مسيل الماء إلى الغدير المتصل بالغدِير، وقيل: الماء المستنقع من سيل أو غيره، اللسان «أضاً».

(٢) حسن: هذا قد عنعه ابن إسحاق، ورواه الطبري (١٥/٢٤) في تفسيره.

قلت: لكن رواه ابن إسحاق (١/٤٢٣، ٤٢٤) في السيرة مطولاً مصرحاً فيه بالسماح كما عند البزار ورجاله كذا ثقات كما في المجمع (٦١/٦) للهيتمي.

تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكره البخاري بمعناه^(١). وقد مضى في آخر «الفرقان»^(٢).

وعن ابن عباس أيضا نزلت في أهل مكة قالوا: بزعم محمد أن من عبد الاوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنها نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألا يتقبل منهم للذنوب سبقت لهم في الجاهلية^(٣). وقال ابن عباس أيضا وعطاء: نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه^(٤): وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتى وحشي إلى النبي ﷺ؛ فقال: يا محمد أتيتك مستجيра فأجرني حتى أسمع كلام الله. فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيرا فأتت في جوارى حتى تسمع كلام الله» قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلني لا أعمل صالحا، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فدعا به فتلا عليه؛ قال: فلعلني ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: نعم الآن لا أرى شرطا. فأسلم^(٥). وروى حماد ابن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وفي مصحف ابن مسعود «إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء»^(٦). قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير، أي يغفر الله لمن يشاء. وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة، ودل على أنه يريد التائب ما بعده ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا يدل على ذلك: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكال فيه. وقال علي بن أبي طالب: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقد مضى هذا في «سبحان»^(٧). وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] وقد مضى في «الرعد»^(٨). وقرئ «ولا تقنطوا»^(٩) بكسر النون وفتحها. وقد مضى في «الحجر»^(١٠) بيانه.

(١) صحيح : وقد سبق (٢) عند الآية (٦٨) .

(٣) ضعيف : الطبري من طريق العوفيين ، كذا في تفسيره (٢٤ / ١٤) .

(٤) ، (٥) منقطع وهو ضعيف : فطاء هذا هو الخراساني ولم يسمع من ابن عباس هنا ، ورواه الهيثمي (٧ / ١٠٠) ، (١٠١) في المجمع وعزه للطبراني في الأوسط ، وقال : « فيه أبي بن سفيان ضعفه الذهبي » .

(٦) ضعيف : للاختلاف في شهر والأرجح ضعفه ، وهذه قراءة شاذة ، ورواه الترمذي (٣٢٣٧) في التفسير ، وضعفه الألباني هناك .

(٧) عند الآية (٨٤) من سورة الإسراء . (٨) عند الآية (٦) من سورة الرعد .

(٩) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٣١) . (١٠) عند الآية (٥٥) من سورة الحجر .

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة. لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تَصْرُونَ﴾ أي: لا تمنعون من عذابه. وروى من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من السعادة: أن يطيل الله عمر المرء في الطاعة ويرزقه الإنابة، وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُعْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ﴾ هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعته، واجتنبوا معصيته^(٢). وقال السدي: الأحسن ما أمر الله به في كتابه^(٣). وقال ابن زيد: يعني المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى علمه^(٤). وقال: أنزل الله كتب التوراة والإنجيل والزيور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز^(٥). وقيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص. وقيل: ما علم الله النبي عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن؛ وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية. ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ «أن» في موضع نصب أي كراهة ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ وعند الكوفيين: لثلاث تقول وعند البصريين: حذر ﴿أَنْ تَقُولَ﴾. وقيل: أي من قبل: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ لأنه قال قبل هذا ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ الزمخشري: فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر. ويجوز أن يريد نفساً متميزة من الأنفس، إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفَتْ بِجَوْهٍ
أَتَانِي كَرِيمٍ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مَغْضَبًا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا، ونظيره: رب بلد قطعت، ورب بطل قارعت، ولا يقصد إلا التكثير. ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ والأصل «يا حسرتي» فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن في الاستغانة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يَا مَرْحَبًا بِحَمَارِ نَاجِيهِ إِذَا أَتَى قَرْبَتَهُ لَلْسَانِيهِ

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حسرتاي»^(٦) والحسرة الندامة ﴿عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله. وقال الضحاك: أي في ذكر الله عز وجل. قال: يعني القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: في ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال: فلان يعيش في جنب فلان، أي: في جواره؛ ومنه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦] أي: ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أي: على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه. والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنباً؛ تقول: تجرعت في جنبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك.

(١) ضعيف بتمامه: ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٤٦٦، ٣٣٤٤).

(٢) (٣، ٢) رواه البغوي (٧/ ١٢٨) في تفسيره، وهو صحيح، ورواه السدي كما عند الطبري (١٨/ ٢٤) في تفسيره.

(٤، ٥) رواه الطبري (١٧/ ٢٤) في تفسيره.

(٦) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٨).

وقيل: ﴿فِي جنبِ اللَّهِ﴾ أي: في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمي الجانب جنبا، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُودًا لِذَاكَ الْقَلْبُ النَّاسُ جَنْبٌ وَالْأَمِيرُ جَنْبٌ

يعني الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أي تركت من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جنب حاجتي؛ قال كثير:

أَلَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ عَاشِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكَ تَقَطُّعٌ

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله^(١). ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلس رجل مجلسا، ولا مشى ممشى، ولا اضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه ترة يوم القيامة» أي حسرة؛ خرجه أبو داود بمعناه^(٢). وقال إبراهيم التيمي: من الحسرات يوم القيامة: أن يرى الرجل ماله الذي آتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات: أن يرى الرجل عبده الذي خوله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو. ﴿وَأَنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا وبأولياء الله تعالى: قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها^(٣) ومحل ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ النصب على الحال؛ كأنه قال: فرطت وأنا ساخر؛ أي: فرطت في حال سخريتي. وقيل: وما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ﴾ هذه النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أي: أرشدني إلى دينه. وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق. وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فهي كلمة حق أريد بها باطل؛ كما قال علي رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج لاحكم إلا لله. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشرك والمعاصي. ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يعني أن هذه النفس تقول حين ترى العذاب ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: تمنى الرجعة. ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفا على «كرة» لأن معناه أن أكر؛ كما قال الشاعر:

لَلْبَسِ عِبَاءَ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بُسِّ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء:

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرُ ذِكْرِي وَخَشْيَةٍ وَتَسْأَلُ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب وتساءل على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام: فما لك منها إلا أن تذكر. ومنه للبس عباءة وتقر؛ أي: لأن ألبس عباءة وتقر. وقال أبو صالح: كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد

(١) صحيح: رواه الطبري (١٩ / ٢٤) في تفسيره .

(٢) صحيح بنحوه: وليس بهذا اللفظ، وإنما هو عند الترمذي (٣٣٧٧٠) في الدعوات، وأبي داود (٤٨٥٥) في الأدب، وانظر: الصحيحة (٧٧) للألباني، وهو عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٣) صحيح: عزاه السيوطي (٥ / ٦٢٤) في الدر لعبد بن حميد وابن جرير والطبري .

قلت: وهو عند الطبري (١٩ / ٢٤) في تفسيره .

رقعة: إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أتعب نفسي فترك عمله وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق ماله في الفسجور، فأتاه ملك الموت في الذما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا يتفعله الندم؛ فأنزل الله خبره في القرآن^(١). وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صنف منهم قال: ﴿يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾. وصنف منهم قال: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧). وقال آخر: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨). فقال الله تعالى ردا لكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ (٢) قال الزجاج: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ ما هداني، وكان هذا القائل قال ما هدبت؛ فقيل: بل قد بين لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أممكنك أن تؤمن. ﴿آيَاتِي﴾ أي: القرآن. وقيل: عنى بالآيات المعجزات؛ أي وضع الدليل فأنكرته وكذبت. ﴿فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: تكبرت عن الإيمان ﴿وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وقال: ﴿فَكَذَّبَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتِ﴾ وهو خطاب الذكر؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرد؛ تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد. وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين»^(٣). وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءته آياتي»^(٤) وهذا يدل على التذكير والربيع بن أنس لم يلحق أم سلمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث. وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنْتَ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ﴾ لم يقل: من السواخر ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء «واستكبرت وكنت» من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين، أو من القوم الساخرين.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٥)
 وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَاتِ نَفْسِهِمْ لَّا يَسْهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٨﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش ﴿تَرَى﴾ غير عامل في قوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ إنما هو ابتداء وخبر. الزمخشري: جملة في موضع الحال إن كان ﴿تَرَى﴾ من رؤية البصر، ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية

(١) ضعيف: أبو صالح هذا كذاب، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) صحيح إليه: الطبري (٢٤ / ٢٠) في تفسيره.

(٣، ٤) قراءات غير متواترتين: انظر: المحرر الوجيز (٩٨ / ١٤) لابن عطية.

القلب. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بين رسول الله ﷺ معنى الكبر فقال عليه السلام: «سفه الحق وغمص الناس»^(١) أي احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»^(٢) وغيرها. وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذر يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرئ: «وينجي»^(٤) أي: من الشرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمفازاتهم»^(٥) وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم. وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يحشر الله مع كل امرئ عمله، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح، فكلما كان رعب أو خوف قال له لا ترع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعني به، فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنتك فمن أنت؟ فيقول: أما تعرفني، أنا عمك الصالح حملتني على ثقلي، فوالله لأحملتك ولأدفعن عنك فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمْسَهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»^(٦).

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي حافظ وقائم به. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ واحدا مقلد. وقيل: مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد. والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره^(٧). وقال السدي: خزائن السموات والأرض^(٨). وقال غيره: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض: النبات. وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدا إقليد. قال الجوهري: والإقليد المفتاح، والمقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلاً كما يقلد القت إذا جعل جبالا؛ أي يقتل والجمع المقلد. وأقلد البحر على خلق كثير، أي: غرقهم كأنه أغلق عليهم. وخرج البيهقي عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «ما سألتني عنها أحد لا إله إلا الله، والله أكبر، سبحان الله وبحمده، استغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»^(٩) ذكره الثعلبي في تفسيره، وزاد «من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها: يحرس من إبليس، والثانية يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له

(١) صحيح: مسلم (٩١) في الإيمان، عن ابن مسعود - رضي الله عنه .

(٢) عند الآية (٣٤) .

(٣) حسن: الترمذي (٢٤٩٢) في صفة القيامة وحسنه الألباني هناك .

(٤، ٥) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١١٠) .

(٦) لم أجده هكذا .

(٧) منقطع: بين ابن عباس - رضي الله عنهما وعلي بن أبي طلحة . والطبري (٢٤ / ٢٢) في تفسيره .

(٨) صحيح إليه: الطبري (٢٤ / ٢٢) في تفسيره .

(٩) ضعيف: الهيثمي (١١٥ / ١٠) وفيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف .

وقال ابن كثير (٦١ / ٤): «ذكر ابن أبي حاتم هنا حديثا غريبا جدا وفي صحته نظر»، وذكره ثم قال: «وهو غريب وفيه نكارة شديد»، والله أعلم .

درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزيور، وله أيضا من الأجر كمن حج واعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا». وروى الحارث عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير المقليد: فقال: «يا علي لقد سألت عن عظيم المقليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله واستغفر الله، ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا: أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يعطى قنطارا في الجنة هو أثقل في ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يزوجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشر ألف ملك يكتبونها له في رق منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وكمن حج واعتمر فقبل الله حجته وعمرته، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء»^(١). وقيل: المقليد: الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقليد: أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من في السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحجج والدلالات. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدم. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ ذلك حين دعوا النبي ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا: هو دين آبائك. و«غير» نصب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿تَأْمُرُونِي﴾ على حذف حرف الجر؛ التقدير: أتأمروني بغير الله أن أعبد، لأن «أن» مقدره و«أن» والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمروني بعبادة غير الله. وقرأ نافع: «تأمروني» بنون واحدة مخففة وفتح الباء^(٢). وقرأ ابن عامر: «تأمروني» بنونين مخففتين^(٣) على الأصل. الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتشغيل يقع بها، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانه عند قوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونِي﴾. ﴿أَعْبُدُ﴾ أي أن أعبد فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي. ومنه قول الشاعر:

ألا أيهدأ الزاجري أحضر الوغى

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أعبد» بالنصب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥١﴾﴾
بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾

(١) ضعيف جداً: الحارث الأعور: ضعيف جداً وذكره الألوسي في روح المعاني (٤١٨/٧).

(٢، ٣) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ﴾ قيل: إن في الكلام تقدماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك. وقيل: هو على بابه؛ قال مقاتل: أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف. ثم قال: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ﴾ يا محمد: ﴿لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة^(١). وقيل: الخطاب له والمراد أمته؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك. والإحباط: الإبطال والفساد. قال القشيري: فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] فالطلقها هنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا: من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك: تجب عليه الإعادة وقد مضى في «البقرة»^(٢) بيان هذا مستوفى. قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ النحاس: في كتابي عن أبي إسحاق لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبد» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين. قال النحاس: وقال الفراء: يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاها المهدي عن الكسائي. فأما الفاء فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة. وقال ابن عباس: ﴿فَاعْبُدْ﴾ أي فوحده^(٣). وقال غيره: ﴿بَلِ اللَّهِ﴾ فاطع ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَتَفِيحٌ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أٰخَرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال المبرد: ما عظموه حق عظمتهم من قولك: فلان عظيم القدر. قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمتهم إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قدرته وعظمتهم فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على إصبع والخلاتق على إصبع ثم يقول أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قال: هذا حديث حسن صحيح^(٤). وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»^(٥). وفي الترمذي عن عائشة «أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»

(١) معضل: الشوكاني (٦/ ٣٠١) في فتح القدير. (٢) عند الآية (٢١٧).

(٣) عزاه الشوكاني (٦/ ٣٠٢) في فتح القدير لطاء ومقاتل.

(٤) حسن صحيح: الترمذي (٣٤٣٨) في التفسير، وصححه الألباني.

(٥) متفق عليه: البخاري (٤٨١٢) في التفسير، ومسلم (٢٧٨٧/ ٢٣) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب

صفة القيامة والجنة والنار.

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴿﴾ قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جسر جهنم» في رواية «على الصراط يا عائشة» قال: حديث حسن صحيح. (١) وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ «ويقبض الله الأرض» عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته (٢)؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي، بمعنى ما فلان إلا في قدرتي، والناس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه وقدرته. وقد يكون معنى القبض والطي إفناء الشيء وإذهابه فبقوله جل وعز ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة، والمراد بالأرض الأرضون السبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتضى للمبالغة. وقوله: ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾ ليس يريد به طيا بعلاج وانتصاب، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب؛ يقال: قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنا دهر بمعنى المضي والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] يريد به الملك؛ وقال: ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي بالقوة والقدرة أي لاخذنا قوته وقدرته. قال الفراء والمبرد: اليمين القوة والقدرة. وأنشدا:

إِذَا مَا رَأَيْتُ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

وقال آخر:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نُورُهَا تَنَاولْتُ مِنْهَا حَاجَتِي بِيَمِينِ
قَتَلْتُ شَنِيفًا ثُمَّ فَارَانَ بَعْدَهُ وَكَانَ عَلَى الْآيَاتِ غَيْرَ أَمِينِ

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا؛ لأن الدعوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] حسب ما تقدم في «الفاتحة»، ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟» (٣)، وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة بياننا، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرض بشماله» (٤).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَمِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفسختان؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية.

وقد مضى الكلام في هذا في «النمل» (٥) و«الأنعام» (٦) أيضا. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام.

وقد قيل: إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ إن صاحبي

(١) حسن صحيح: مسلم (٢٧٩١) في صفة المنافقين وأحكامهم، والترمذي (٣١٢١) في التفسير، وصححه الألباني.

(٢) وهو تأويل مردود، فنثبت له سبحانه ما أثبتته لذاته من يد على النحو الذي يليق به سبحانه.

(٣) (٤) متفق عليهما: وقد سبقا.

(٥) عند الآية (٨٧).

(٦) عند الآية (٧٣).

الصور بأيديهما - أو في أيديهما - قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران^(١) خرج ابن ماجه في السنن . وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال : ذكر رسول الله صاحب الصور ، وقال : «عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكايل»^(٢) . واختلف في المستثنى من هم ؟ فقيل : هم الشهداء متقلدين أسياهم حول العرش . روي مرفوعا من حديث أبي هريرة^(٣) فيما ذكر القشيري ، ومن حديث عبدالله بن عمر فيما ذكر الثعلبي^(٤) . وقيل : جبريل وميكايل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام . وروي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» فقالوا : يا نبي الله من هم الذين استثني الله تعالى ؟ قال : «هم جبريل وميكايل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله تعالى لملك الموت يا ملك الموت من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب بقي جبريل وميكايل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرائيل وميكايل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الغاني فيقول الله تعالى يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» قال النبي ﷺ : «إن فضل خلقه على خلق ميكايل كالطود العظيم على الظرب من الطراب»^(٥) ذكره الثعلبي . وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحاق ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ في قوله جل وعز : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» قال : «جبريل وميكايل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل»^(٦) وفي هذا الحديث : «إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام»^(٧) وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح على ما تقدم في «النمل»^(٨) . وقال الضحاك : هو رضوان والخور ومالك والزبانية^(٩) . وقيل : عقارب أهل النار وحياتها . وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت^(١٠) . وقال قتادة : الله أعلم بشيئه^(١١) . وقيل : الاستثناء في قوله : «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أي فيموت من في السماوات والأرضى إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا . وفي الصحيحين وابن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله ﷺ . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «قال الله عز وجل : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» فأكون أول من رفع رأسه ، فإذا أنا بموسى

(١) ضعيف : ابن ماجه (٤٢٧٣) في الزهد ، وضعفه الألباني هناك لوجود حجاج بن أرطاة ، وعطية العوفي .

(٢) ضعيف : أبو داود (٣٩٩٨ ، ٣٩٩٩) في الحروف والقراءات ، وضعفه الألباني هناك ، وفيه عطية العوفي .

(٣) ضعيف : البيهقي (٦٦٩) في البعث . (٤) ضعيف : انظر السابق .

(٥) ضعيف : انظر التالي

(٦ ، ٧) ضعيف : فيه يزيد الرقاشي ، وعن عنه ابن إسحاق ، وهو عند الطبري (٢٤ / ٢٨) في تفسيره .

(٨) سبق عند الآية (٨٧) .

(٩) ذكره ابن الجوزي (٥ / ٢٧٩) في زاد المسير بلا إسناد .

(١٠ ، ١١) انظر السابق ، وهو صحيح إلى قتادة ، وانظر : الدر المنثور (٥ / ٦٣١) للسيوطي .

أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»^(١)، وخرجه الترمذي أيضا وقال فيه: حديث حسن صحيح. قال القشيري: ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهو لاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله. فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزه العقل، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله» خرجه مسلم^(٢). ونحوه عن أبي سعيد الخدري؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت برد الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم. وأجاز الكسائي قياما بالنصب؛ كما تقول: خرجت فإذا زيد جالسا.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشُّهَدَاءُ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقها إضاءتها؛ يقال: أشرفت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره^(٣). وقال الضحاك: بحكم ربها^(٤)؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض^(٥). وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حد إضافة الملك إلى المالك. وقيل: إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهار لا ليل معه. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير «وأشرقت الأرض» على ما لم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير. وقد ضل قومها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضيء المحسوس، وهو متعال عن مشابهة المحسوسات، بل هو منور السموات والأرض، فمنه كل نور خلقا وإنشاء. وقال أبو جعفر النحاس: وقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ

(١) متفق عليه : وقد سبق .

(٢) صحيح : وقد سبق .

(٣- ٥) البغوي (٧ / ١٣٢) في تفسيره .

(٦) متفق عليه : وقد سبق .

رَبِّهَا» بين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح «تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامون في رؤيته»، وهو يروى على أربعة أوجه: «لا تضامون» و«لا تضارون» و«لا تضامون» و«لا تضارون»؛ فمعنى «لا تضامون» لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تضارون» لا يلحقكم ضير. و«لا تضامون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه. و«لا تضارون» لا يخالف بعضكم بعضا. يقال: ضاره مضارة وضرارا، أي: خالقه.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللوح المحفوظ^(١). وقال قتادة: يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ يمينه وأخذ بشماله^(٢). ﴿وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جيء بهم فسألهم عما أجابتهم به أمهم. ﴿وَالشَّهَدَاءِ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله؛ قاله السدي^(٣). قال ابن زيد: هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم^(٤). قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتي بيانه في «ق»^(٥). ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل. ﴿وَهُمْ لَا يظلمُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم^(٦). ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك فتشهد الكتب، والشهود إلزاما للحجة.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزمر: الجماعات واحديتها زمرة كظلمة وغرفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة: ﴿زُمَرًا﴾ جماعات متفرقة بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وترى الناس إلى منزله
زُمَرًا تتنابَه بعد زُمَر

وقال آخر:

حتى احزألت
زُمَرٌ بعد زُمَر

وقيل: دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعة

(١) صحيح: الطبري (٢٤/ ٣٢) في تفسيره.

(٢) انظر: الطبري (٣٢/ ٢٤) في تفسيره.

(٣) عند الآية (٢١). (٦) لم أجده هكذا.

أبواب. وقد مضى في «الحجر»^(١). «وَقَالَ لَهُمْ خُزِّنْهَا» واحدهم خازن نحو سدة وسادن، «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» يقولون لهم تقرعاً وتوبيخاً. «يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ» أي: الكتب المنزلة على الأنبياء. «وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» أي يخوفونكم لقاء يومكم هذا «قَالُوا بَلَىٰ» أي قد جاءتنا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» وهي قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١١٣]. «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضى الكلام في أبوابها. قال وهب: تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه يقع في الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر. «فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ» تقدم بيانه.

«وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّبْتُهَا فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ» «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُونَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ﴿

قوله تعالى: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا» يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين: «وَسِيقَ» بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السويقين. «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قال المبرد: أي سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب. وأنشد:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسًا

حذف جواب لو والتقدير لكان أروح. وقال الزجاج: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا» دخلوها وهو قريب من الأول. وقيل: الواو زائدة. قال الكوفيون: وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله: «جَنَّاتٍ عِدْنٍ مَّفْتُوحَةٍ لَهُمُ الْأَبْوَابُ» [ص: ٥٠]. وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدي وحكى معناه النحاس قبله. قال النحاس: فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» دل بهذا على أنها كانت مغلقة، ولما قال في أهل الجنة: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم. وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية، فإذا بلغوا

السبعة قالوا : وثمانية ؛ قاله أبو بكر بن عياش . قال الله تعالى : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة : ٧] وقال : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ ثم قال في الثامن ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة : ١١٢] ، وقال : ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَمَانِيَةَ﴾ [الكهف : ٢٢] وقال : ﴿ثَبَاتٍ وَبُكَارًا﴾ [التحریم : ٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة»^(١) مستوفى وفي «الكهف»^(٢) أيضا .

قلت : وقد استدلل بهذا من قال : إن أبواب الجنة ثمانية ؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٣) خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذي حديث عمر هذا وقال فيه : «فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة»^(٤) بزيادة «من» وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة» وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد في الحديث من ذلك ، فمن أراداه وقف عليه هناك .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴿قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾ أي في الدنيا . قال مجاهد : بطاعة الله . وقيل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى التحية : ﴿طَبِّتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ .

قلت : خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»^(٥) وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عيان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان : ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبقراطهم فعندها يقول لهم خزنتها ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ وهذا يروى معناه عن علي رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾ أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا . ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي : أرض الجنة قيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين ؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين ، وقيل : إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير^(٦) . . ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قيل : هو من قولهم أي نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول

(١) الآية (١١٢) من سورة التوبة ، و(٢٢) من سورة الكهف .

(٣) صحيح : مسلم (٢٣٤) في الطهارة .

(٤) صحيح : الترمذي (٥٥) في الطهارة وصححه الألباني

(٥) صحيح : البخاري (٢٤٤٠) في المظالم .

(٦) صحيح إلى قتادة والسدي : الطبري (٣٦ / ٢٤) في تفسيره .

الله تعالى؛ أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَافِينَ﴾ أي محققين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به؛ أي: يصلون حول العرش شكرا لربهم. والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدهم حاف. وقال الفراء: لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين. ودخلت ﴿مِنْ﴾ على ﴿حَوْلٍ﴾ لأنه ظرف والفعل يتعدى إلى الظرف بحرف وبغير حرف. وقال الأخفش ﴿مِنْ﴾ زائدة أي حافين حول العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد. الثعلبي: والعرب تدخل الباء أحيانا في التسييح وتحذفها أحيانا، فيقولون: سبح بحمد ربك، وسبح حمدا لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قضى بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا. وقال قتادة في هذه الآية: افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وختم بالحمد فقال ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده^(١). وقيل: إن قول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه. وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرك المنبر مرتين^(٢).

(١) صحيح إليه: الطبري (٣٧ / ٢٤) في تفسيره، وزاد السيوطي (٥ / ٦٤٢) في الدر عزوه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وعبد الرزاق.

(٢) ضعيف: الهيثمي (٢ / ١٩٠) في المجمع، عن جابر - رضي الله عنه، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط من رواية أبي بحر البكرائي، عن عباس بن ميسرة المنقري، وكلاهما: ضعيف»، إلا أن أحمد قال في أبي بحر: لا بأس به.